

العمل الإيجابي¹

* مقاومة الخطية غير مضمونة بدون العمل الإيجابي ...

* أن دخلت محبة الله إلى قلبك تبدد كل خطية

* ما هو العمل الإيجابي؟ وما كل عناصره...؟

* إن انشغلت بالله تحبه وإن أحبته تشغل به.

* متى يحترمك الشيطان ويخافك؟ ومتى يستهين بك؟

* بالعمل الإيجابي تقيم توازنًا مع محاربات الخطية.

كل إنسان - في بناء حياته الروحية - يواجه أربفين هامين: أحدهما هو مقاومة الخطية لكيما يظهر قلبه وذهنه، ويظهر حواسه وجسده. وقد يمتد به الأمر إلى مقاومة الخطية في غيره من الناس. لكي يشارك في نقاوة المجتمع الذي يعيش فيه. إنها حياة صراع ضد الخطية والشيطان. تمثل الجانب السلبي من الحياة الروحية.

أما الجانب الإيجابي في الحياة الروحية، فهو بناء النفس والروح بالفضيلة والحياة مع الله ومذاكمة الملائكة. فيذوق محبة الله والتمتع بعشرته في حياة مقدسة...

إن الذي يجعل حياته كلها مقاومة للخطية، لا شك أنه يتعب كثيراً، لأن حياته ضائعة في صراع مع الخطية التي قال عنها الكتاب أنها: "طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى وَكُلُّ قَتْلَاهَا أَفْوَيَاءً" (أم 7: 26) وفي صراع مع الشيطان الذي هو عدو قاس وشريك لا يرحم. وفي نفس الوقت هو مختبر للنفس البشرية على مدى آلاف السنين. يعرف ضعفاتها ونقصها. ويعرف كيف يسقطها ...

لا شك أن هذا العمل السلبي شاق وصعب. وقضاء الحياة فيه أمر يرهق النفس إرهاقاً قد لا تحتمله.

فالصراع مع أجناد الشر الروحية ليس أمراً سهلاً. لأن الشيطان وإن كان قد فقد طهارته ونقاوته وقداسته السابقة. إلا إنه لم يفقد طبيعته كملائكة. بكل ما في هذه الطبيعة من قوة. وبكل ما لها من إمكانيات...

ماذا إذن؟ هل يترك الإنسان هذا الجانب السلبي؟ هل يترك مقاومة الخطية؟! كلا بلا شك فإن هذا يكون استسلاماً لها...!

والرسول يعاتب أمثال هؤلاء ويقول: "لَمْ تُقَاتِمُوا بَعْدَ حَتَّى الدَّمْ مُجَاهِدِينَ ضِدَّ الْخَطِيَّةِ" (عب 12: 4).

فالمفروض في الإنسان أن يقاوم الشيطان والخطية والجسد بكل ماله من قوة، وبكل ما منحه الله من نعمة، ويستمر صامداً إلى آخر نسمة من حياته.

إنما هو السؤال: لماذا تكون مقاومة الخطية صعبة؟ لماذا سماها الرب بباب الضيق والطريق الضربي؟ (مت 7: 13، 14).

ولماذا قال كثير من الآباء إن الحياة الروحية تبدأ بالتعصب وقهقر النفس؟

¹ مقال: قداسة البابا شنودة الثالث "معالم الطريق الروحي - العمل الإيجابي"، وطني بتاريخ 9 ديسمبر 1984م.

إنها تكون هكذا صعبة إن كانت خالية من العمل الإيجابي... إن كانت مجرد صراع... "الجَسَدُ يُشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهَذَا يُقاوِمُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ" (غل 5: 17).

ولماذا هذا الصراع؟ ذلك لأن محبة الله لم تدخل إلى القلب، ولم تستقر فيما بعد. وكيف تدخل محبة الله إلى القلب؟ تدخل بالعمل الإيجابي.

من هنا كانت أهمية العمل الإيجابي في الحياة الروحية. لأنه بدونه تكون مقاومة الخطية عملية صعبة ومريرة. وربما تكون أيضًا عملية خاسرة...! ولماذا هنا نسأل:

لماذا يتعب الإنسان في حروبه الروحية. لماذا يتارجح كثيراً بين الفشل والنجاح؟ وذلك لأن محبة الله ليست داخل قلبه. فهو يحارب من فراغ. يقاوم الخطية ثم لا يصمد. لأنه لا يملك السلاح الذي يحارب به. لا يملك القوة التي يصمد بها. ولا شك أن السلاح القوي الذي تنتصر به على الخطية. هو محبة الله التي يجعلك تتفر من الخطية. وتقول: "كَيْفَ أَصْنَعُ هَذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأَخْطُلُ إِلَى اللَّهِ؟" (تك 39: 9)

إن محبة الله إن دخلت إلى قلبك، ستهرب منه الخطية تماماً، هذه التي تشقى أنت في مقاومتها، وتقع وتقوم مرات بغير ثبات!

إن دخلت محبة الله إلى قلبك. لا تشعر بأي سلطان للخطية عليك. ولا تحتاج إلى جهد كبير في مقاومتها بل لا تجد داخلك هذا الصراع بين الجسد والروح. لأنك ستكون بطبعك نافراً من الخطية. كما أن الشيطان لا يجد له مكاناً فيك... .

وكما قال السيد المسيح له المجد: "رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِي شَيْءٍ" (يو 14: 30).

حالياً تحتاج إلى صراع مع الخطية، لأن في داخلك شهوات عالمية تسقطك. توجد شهوات في قلبك تقاوم الله. لذلك عندما يأتي إليك الشيطان. يجد البيت مزيناً ومفروشاً ومستعداً للقائه. فيدخل وأعوانه معه. لذلك شهوة الروح تجد مقاومة في داخلك من شهوة الجسد.

أما إن كانت محبة الله في قلبك، فسيكون بيتك محسنة ضد أي خطية، فلا تجد سهولة مطلقاً في اقتحامه. وحينئذ يمكنك أن تغني مع داود النبي، وتقول لنفسك المحسنة: "سَبِّحِي الرَّبَّ يَا أُورُشَلَيمَ، سَبِّحِي إِلَهِكِ يَا صَهِيُونَ. لَأَنَّهُ قَدْ قَوَّى مَغَالِيقَ أَبُوابِكِ، وَبَارَكَ بَنَيَكِ فِيَكِ" (مز 147: 1).

محبة الله في داخلك، تجعل الخطية ضعيفة جداً في مهاجمتها لك، لأنه لا يوجد في داخلك ما يتلقى معها... .

وتصبح أبواب قلب مغلقة أمام الشيطان. لا يستطيع أن ينفذ إليها بضربة شمال ولا بضربة يمين.

الحب في داخلك يحسن نفسك. وهذا الحب يلد في داخلك بنين كثرين هم ثمر الروح من الفضائل وأعمال البر.

لذلك لا يقول المرتل لنفسك أن الله قد حصن مغاليق أبوابك. فقط من الناحية السلبية. إنما يقول لها أيضاً من الناحية الإيجابية: "وَبَارَكَ بَنَيَكِ فِيَكِ".

إنه جهاد مريح وسهل ومفرح للقلب، أن تجاهد الجهاد الإيجابي من أجل معرفة الله والنمو في محبته. وهو جهاد يختلف تماماً عن الجهاد السلبي في مقاومة الخطية والشيطان.

إن الأذ شيء في الحياة الروحية هو هذا العمل الإيجابي. الذي هو مذaque الله ومذaque الملكوت. وهو التمتع بالله. والمعيشة معه في عمق محبته... وفيه لا تعود تقاسي من الحرروب الروحية. ولا من صراع ضد الخطية. لأنك لم تعد تتلق معها في طباعك. ولا يوجد في داخلك ما يرضي بها...

هل تظن أن الإنسان يسقط في الخطية، بسبب أن الخطية قوية، والعنارات شديدة، والشيطان كثير الحيل؟! كلا، بل أنه يسقط بالأكثر لأن قلبه خالي من محبة الله...

وإن كان يحب الله. فلن يجد الخطية شهية على الإطلاق. ولا يجدها مطلقاً قوية في حروبها... بل يرى نفسه ينفر منها. لأنها خاطئة جداً. ولا تتوافق طبعه النقى.

وكيف يصل إلى ذلك؟

يصل إلى ذلك بالعمل الإيجابي الروحي الذي يوصله إلى محبة الله. ومحبة الله يجعله لا يخطئ. لأن "المَحَبَّةُ لَا تَسْقُطُ أَبَدًا" (كو 13: 8)، وكما قال القديس يوحنا الرسول أن "الله مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَتَبَثُ فِي الْمَحَبَّةِ يَتَبَثُ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ" (1يو 4: 16) "وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ لَأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ" (1يو 3: 9).

حاول إذاً أن تملأ قلبك من محبة الله، حينئذ تكون محبته في داخلك كنار ملتهبة، تحرق كل شهوات الخطية وكل آثارها وكل أفكارها.

فما هو العمل الإيجابي الذي يوصلك إلى كل هذا؟

فكر كثيراً في الله. وتفكيرك في الله يلد محبته في قلبك. ومحبته يجعلك تفكير فيه بالأكثر. وكل من الأمرين يوصل إلى الآخر وينقويه...

وإذا ما أكثرت التفكير في الله. وفي سمائه وملائكته، وفي كلامه ووصاياه، وفي الأبدية السعيدة معه، وإذا ما أكثرت التفكير في صفات الله الجميلة، وفي معاملات الله للناس، حينئذ ستتشغل بالله. ومشغوليتها به ستجعلك تفكير فيه بالأكثر وتفكيرك فيه سيزيد محبتك له. وهذا تدور الدائرة...

تفكيرك في الله هو العمل الإيجابي الأول في حياتك الروحية... أي أن يكون الله أمامك باستمرار، تتذكره كل حين، كما قال داود النبي: "مَحْبُوبٌ هُوَ اسْمِكَ يَا رَبَّ فَهُوَ طَوْلُ النَّهَارِ تِلَاوَتِي" (مز 119: 97).

وتفكيرك في الله يقدس فكرك. ويولد في قلبك مشاعر روحانية. وفي كل ذلك تستحي من أن تفكير في شيء خاطئ. ولا يسهل عليك أن تخلط بأفكارك المقدسة أي فكر نجس. أو حتى أي فكر عالمي. وتنتشج للاستمرار في فكر الإلهي.

والتفكير في الله يوصلك إلى نقاوة القلب، لأنه لا شركة مطلقاً بين النور والظلمة (كو 6: 14). وهذا تتعود الصلاة. وتعود أيضاً الهذى والتأمل. وتشعر بأنك في حضرة الله باستمرار.

وفي هذا الحضور الإلهي لا يجرؤ الشيطان أن يقترب إليك. وإن اقترب سرعان ما يتركك. لأنه لا يجد له مجالاً فيك. ولا يجدك متقرضاً له. ويرى أن طررك لا تتوافق طرقه... وحتى إن حاربك بشيء. تكون حربه ضعيفة. لأنك مشغول بالله... لهذا تكون كل حرب الشيطان لك مركزة في إبعادك عن الانشغال بالله، وليس في محاربتك علناً بالخطية... فإن استطاع الشيطان أن يبعده عن عملك الإيجابي الذي هو الانشغال بالله. حينئذ يتدرج خطوة أخرى فيحاول القائك في السلبيات...

وحتى في تلك الحالة تكون قد اكتسبت قوة من عملك الروحي السابق تستطيع أن تقاوم بها محاربات الشيطان. وفي هذه الحالة يحاربك الشيطان وهو يحترمك، وهو يخافك، وهو يحترس منك، فلا ينزل عليك بكل ثقله. أما الإنسان بعيد عن العمل الإيجابي فهو فريسة سهلة للشياطين... وهم لا يخافونه. إذ يعرفون أنه بلا قوة في الداخل تقاومهم.

قلنا إن العمل الإيجابي يشمل محبة الله، ويأتي عن طريق التفكير في الله، وعن طريق الهذى والتأمل والانشغال بالله. وماذا أيضاً

إن القراءة الروحية نافعة جداً كعمل إيجابي يشغل الفكر بالله، ويقدم له كذلك مادة للتأمل والصلوة. إنها تذكرني برفع البخور الذي يعد المذبح لتقديم القرابين عليه.

فالقراءة توجه فكرك في جو روحي وتذكرك بالله وقدسيه. وكلمة الرب فعالة، تعمل فيك، وتعطي حرارة لروحياتك، وتدفعك بقوة إلى طريق الرب، كما أنها تعطيك استثناء في الفكر، وتلد فيك مشاعر روحانية، وتقوي عزيمتك على السير في طريق الله...

ومثل القراءة الروحية في فاعليتها، الاجتماعات الروحية أيضاً. بكل ما فيها من صلوات وقراءات، وترتيل وألحان وجو روحي نافع لربط الإنسان بالله. يضاف إلى ذاك ما فيها من كلمات روحية نافعة.

كل ذلك يوجدك في بيئة روحية، يشعر الشيطان أنه غريب عنها...

والصداقات الروحية نافعة جداً. إنها من الأعمال الإيجابية التي تقوi بها قلبك وتذنبك إلى الله.

وصديقك الروحي، هو الذي كلما تراه، تتذكر الله ووصاياه، وتتبتّك على خطايak، وتأخذ منه قوة في حياة الفضيلة. إن الخطية لم تستطع أن تدخل في حياة لوط وأسرته. حينما كان لوط يعيش مع أبينا إبراهيم. ولكنها وجدت مجاناً حينما ابتعد لوط عن هذه الصدقة الروحية وسكن في سادوم. يعذب نفسه بأخطاء سكانها.

والتناول من أهم الأعمال الإيجابية. بتأثيراته العميقه في النفس، وبما يصحبه باستمرار من توبه واعتراف.

وقد قال السيد المسيح عنمن يتناول "يَتَبَثُّ فِيَ وَأَنَا فِيهِ" (يو6: 56). نقول في صلوات القدس الإلهي "تناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا"...

فما هو الذي لك من كل هذا العمل الإيجابي؟

وماذا لك أيضاً من جهة التماريب الروحية التي تدرب بها نفسك على حياة الروح وثمار الروح.
والتي تجعلك منشغل الفكر كل يوم بأبديتك وكل ما تتطلبه من أعمال...
ثم ماذا أيضاً عن محاسبة النفس. وتبكيتها على كل نقص وكل خطأ...
وماذا عن المطانيات، الصوم والسلوك في حياة الروح...؟

إنك بكل هذا العمل الإيجابي، تقيم توازنًا داخل نفسك بين تأثيرات العالم عليك والتأثير الروحي.
أما أن يأتي الشيطان ليحاربك. فلا يجد حولك إنجيلاً، ولا مزموراً، ولا صلاة ولا هذيناً ولا تأملات روحية ولا اجتماعات،
ولا أصولاماً، ولا مطانيات، ولا اعتراف، ولا تناول... فماذا يكون حالك إذًا؟ وكيف تستطيع أن تقاوم الخطية بلا سلاح؟!
تكون حينئذ مثل مدينة يحاربها العدو، وهي بلا جيش، بلا أسلحة، بلا تحصينات...!

خذ هذه قاعدة. وضعها أمامك: كل إنسان تجده ساقطاً في الخطية، لا بد أن تكون قد مرت عليه فترة، وهو بعيد عن
العمل الإيجابي، سواء من جهة الوسائل الروحية، أو من جهة العمل الإيجابي في حياة الفضيلة ومحبة الله...
وهكذا تكون الخطية قد أنتهت، وهو غير مستعد لها. أو أنتهت وهو في حالة ضعف أو فتور. انظروا أن الرب قد قال: "صَلُّوا
لِكُنْ لَا يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ وَلَا فِي سَبْتٍ" (متى 24: 20).

"في شتاء" في حالة البرودة الروحية ولا "في سبت" في وقت لا تعمل فيه عملاً من الأعمال. وكل الأمرين يذكراننا بالبعد
عن العمل الإيجابي الروحي...

لذلك كن متيقظ القلب باستمرار. ول يكن زيتك في مصباحك. وكما قال الرب في هذا الاستعداد: "لِتَكُنْ أَحْقَافُكُمْ مُمْنَطَقَةً
وَسُرُجُكُمْ مُوَقَّدَةً" (لو 12: 35).

اهتمام بالعمل الإيجابي الروحي الذي يمنحك قوة لمقاومة الخطية.

اماً مخازنك من الروحيات. لكي لا تقوى عليك السنوات العجاف بكل ما فيها من جوع وقطط.
احتفظ بحصاناتك في مقلاعك. حتى إن ظهر أمامك جليات. يمكنك أن تقدم إلى الصف. وأنت تقول في ثقة: "الْيَوْمَ يَخْبُسُكَ
الرَّبُّ فِي يَدِي" (1ص 17: 46).

ولا تقصر جهادك على مقاومة السلبيات فقط، فإنها عمل مضن وإنما بالعمل الإيجابي تناول قوة يمكنك بها التصدي
للخطية..

ول يكن الرب معك..